القسم الخامس

الشّرائع المدنيّة والجزائية والأعياد المقدّسة

«إيّان يلتقي كلٌّ من معياري تطبيق العدل وحُسن النّوايا ؟ عندما يمكن حثّ الأطراف المتنازعة على التّوصّل إلى اتّفاق بشكل سلمي» .

كان تحقيق هذه الغاية الهدف الأسمى دوماً للشّرائع اليهوديّة القديمة ، غير أن ثمّة فارقاً مميّزاً تُراه يفصل ما بين شقّي الشّرائع المدنيّة والجزائيّة . وفي الدّعاوى السّالفة كان يمكن تجهيز المُرافعات مُسبقاً ، والأحكام تصدر إمّا عن الهيئة العامّة للقُضاء ، أو عن قُضاة خصوصيّين يُختارون من قِبَل الطرفين المتنازعين ، فيما كان هناك العديد جداً من الضّوابط الأخلاقيّة المُسلطة على القُضاة لإبقائهم ضمن حدود النّزاهة ، كما في الأمثلة التالية :

«مَن يحكُم بمُلك شخص لغيره ظُلماً وبُهتاناً ، تُسأل عنه روحه أمام الله» .

«إذا جلس القاضي للحُكم بين الأقران فكأنّ ثمّة سيفاً موجّهٌ إلى قلبه» .

«ويلٌ لقاضٍ يُصدر حُكماً جائراً ، ويعمل على تحميل مسؤوليّته للشّهود . فإن الله يحاسبه عليه هو بالذّات» .

«إذا وقف الخصمان أمامك فعاملهما على أنهما مُذنبان ، أمّا عند فضّ المحكمة فعاملهما على أنهما بريئان ، طالما أن الحُكم أُبرم وانتهى» .

ولم يكن يحقّ للقاضي الاستماع إلى أيّة تفاصيل حول دعوى قضائيّة ، ما لم يكن جميع الفُرقاء حاضرين ، وعليه فرضٌ لازبٌ بأن يكون بعيداً تماماً عن التحيّز جرّاء مقام الخصوم أو غناهم ، لفقير ضدّ غنيّ أو لغنيّ ضدّ فقير .

وكان شهود الدّعوى يتعرّضون لأقصى درجات التّدقيق ، بما لا يقلّ عن تدقيق الدّعوى ذاتها ، وكانت تُستبعد عنهم اللّياقة مُباشرةً إن كانت لهم أدنى مصلحة شخصيّة في الدّعوى . وكان إذا طالب صاحب الادّعاء بأكثر ممّا يحقّ له شرعاً ، من باب الطمع بالمزيد ، يفقد دعواه أصلاً .

وفيما كان يكفي ثلاثة قُضاة لتشكيل محكمة للفَصل في الدّعاوى المدنية ، كان يلزم لتأليف المحاكم التي تنظر في الدّعاوى الجنائيّة ثلاثة وعشرون قاضياً ، وبينما كان في الدّعاوى المدنيّة يلزم تحقيق الأغلبية بشخص واحد للتبريء أو للإدانة ، ففي الدّعاوى الجنائيّة يلزم للتبرئة الأغلبية بشخص واحد ، أما للإدانة فيلزم شخصان .

وكان شُهود الوقائع في الدّعاوى الجنائيّة يتمّ تنبيههم على النّحو التالي ، لدى حضورهم للشّهادة في المحكمة :

«لعلّك تنوي النّقل عن مصدر إشاعات ، فتكون ناقلاً عن شاهد آخر ، فتروي ما سمعتَه عن شخص ثقة برأيك ، أو لعلّك لا تدري بأننا سنختبرك بأسئلة تفصيلية وعباراتٍ تَقَصٍّ . فلتعلم إذاً أن هذه المحاكمة ، التي تقف فيها حياة امرئٍ على المِحَكّ ، ليست كالمحاكمات المتعلّقة بشؤون المَتاع الدُّنيوي . فالمال يمكن تعويضه بالمال ، وأما في المحاكمات التي كهذه فليس الأمر مُقتصراً على دم شخص يُدان ظُلماً ، وإنما دمُ ذُرّيته وذُرّيّة ذُرّيته إلى أبد الدّهر يكون حملاً ثقيلاً ينوءُ به كاهلُ شاهد الزُّور . لقد خُلق آدامُ وحيداً مُفرداً ، فمَن يقتل نفساً واحدةً بغير حقّ فهو يُؤاخَذ كأنّما قتل النّاس أجمعين . لذلك فعليك أن تتحرّى مواقع كلامك ، ولكن من جهة أخرى لا تقولَنّ : «وما علاقتي أنا بهذا كلّه ؟» ، بل تذكّر عبارة الكتاب المقدّس : «وإذا سمع أحدٌ وهو شاهدٌ يُبصر أو يعرف ، فإن لم يُخبر به حَمَلَ ذَنبَه» ، وفضلاً عن ذلك تذكّر : «وعند هَلاكِ الأشرار هُتافٌ»[1] » .

وكانت العقوبات تُنفَّذ بأقصى حدّ من الرِّفق ، وكان الدّستور الدّيني برمّته يتجلّى العدالة التّامّة ، مُلطّفةً بالرّحمة بأصدق وأبلغ معانيها .

---

(1) سفر الأمثال – 11 : 10 . والآية السّابقة ترد في سفر اللّيويين – 5 : 1 .

وبالغةً ما بلغت جرائم الجاني ، كانت تفي عقوبة واحدة لتحتويها جميعاً . وكان لا يمكن أن تُرفق العقوبة بغرامة ماليّة ، وفي حالات الجَلد كان عدد الجلدات مُحدّداً في أشدّ الحالات غَرَماً بتسع وثلاثين جَلدة .

وكان يلزم القُضاة في القضايا الكُبرى أن يصوموا طوال النّهار في الأيام التي ينطقون فيها بأحكامهم ، وحتى بعد الحُكم كانت الدّعوى تُدقّق ثانيةً في المحكمة العُليا قبل أن تكتسب الدّرجة القطعيّة .

أما موقع الإعدام فكان يُجعل على بُعد كبير من المحكمة ، وعند سَوقه إلى هناك كان السّجين يُوقَف عدّة مرّات ، ويُسأل عمّا إذا كان بإمكانه أن يفكّر بأي شيء لم يُذكر ، قد يكون من شأنه التأثير في رأي القُضاة لصالحه . وكان يحقّ له العودة إلى المحكمة تكراراً كما يرغب لتقديم دُفوع فرعية جديدة ، وكان ثمّة مُنادٍ يتقدّمه ويصيح عالياً : «هذا الرّجل يُساقُ إلى الإعدام . . . وجريمتُه كذا . . . والشّهود عليه فُلان وفُلان . . . فإذا كان لدى أحد أي شيء يشهد به لصالحه ، فليتقدّم الآن ويُدلي بما لديه» .

وكان يُطالَب قُبيل إعدامه بالاعتراف ، فيقول له القوّامون : «اعترف بذُنوبك ، فكلّ مَن يعترف ويتوب له في الآخرة نصيب» . فإن لم يُدلِ باعتراف كان يُطلب إليه ترديد التالي : «فليكُن موتي كفّارةً لذنوبي كلّها» .

غير أن عقوبة الإعدام مع ذلك كلّه كانت شيئاً نادر الحدوث[1] ، وكأنها كانت من النّاحية العَمَليّة مُلغاةً . والواقع أن عديداً من القُضاة كانوا ينادون عَلَناً بإسقاطها ، وكان ثمّة محكمة نطقت بحُكم موت واحد خلال سبع سنين ، أُطلق عليها لقب : «محكمة القَتَلة» .

* * *

(1) المحاولات پراغماتيّة واضحة لتصوير أحكام الشريعة اليهودية القديمة وكأنها تتوافق تماماً مع إيديولوجيات العصر الحاضر ومعاييره الأخلاقيّة ، بأعلى مستوى .

عيد العُبور
פסח يِسح (الفصح)

يبدأ عيد الخبز الفطير أو عيد العُبور[1] عشيّة يوم 14 من شهر «نيسان» ניסן (أبريل) ، ولقد تمّ وضعه تخليداً لذكرى رَدّ أسلافنا من مصر ، وهي ذكرى أبديّة . وخلال مدّة هذا العيد يُحرّم علينا كليّاً تناول أي طعام مُخمّر[2] .

قال مُوشيْه لليسرَئيليين باسم الرّب[3] : «اسحَبوا وخُذوا لكم غَنَماً» .

فلدى التزامهم بهذه الوصيّة يستحقّون الله بجدارة وهو بالتالي بخلّصهم ، لأنه عندما تكلّم كانوا «عُراةً حُفاة» من الأعمال الصّالحة والفِعال الحميدة .

«اسحَبوا وخُذوا لكم غنَماً» : أي انسحبوا عن الأوثان التي تعبدونها مع المصريين ، ومن العُجول والحملان المصنوعة من الحجر أو من المعدن ، إنما بواحد من الحيوانات التي كنتم بها تُذنبون تهيّأوا للوفاء بالتزامكم تجاه أوامر إلهكم .

ولمّا كان الرّمز الفلكي لشهر نيسان هو الحَمَل ، وحتى لا يَقِرَ في أذهان المصريين أنه من خلال قوّة الحَمَل تمّ لهم الانتفاض من نَير العبوديّة ، فقد أمر الله شعبه أن يأخذوا حَمَلاً ويأكلوه . ولقد أُمروا بأن يشووه كاملاً وبألاّ يكسروا فيه عَظماً ، لكي يتيقّن المصريون من أن ما أكلوه كان حَمَلاً بالفعل .

وقال الله لمُوشيْه : «قُل لبني يسرَئيل أن يطلبوا من المصريين أمتعة ذَهَب وأمتعة فضّة»[4] ، لئلاّ يُقال فيما بعد : «لقد تحقّق الكلام القائل : «ويُستَعبَدون لهم فيُذلّونهم» ، ولم يتحقّق الكلام القائل : «وبعد ذلك يخرجون بأموال جزيلة»[5] » .

---

(1) يِسخ (أو فِسح) في العبريّة هو العبور ، ومنه نقلت السّريانية : ܦܨܚܐ ، وعنها العربيّة ، والفرنسيّة pâques ، والرّوسيّة Пасха ، بينما في الإنكليزيّة passover .

(2) أي العجين يُداف بالماء أو يُلَتّ بالزيت ليختمر في اليوم التالي . أما الفَطير فالعجين قبل اختماره ، ولذا يُسمّى عيد الفصح : חג המצות «حَج هَمّتسوت» (عيد الفطير) .

(3) سفر الخروج - 12 : 21 .

(4) اقتباس من سفر الخروج - 3 : 22 ؛ 11 : 2 .

(5) انظر سفر التكوين - 15 : 14 .

ولمّا كلّم مُوشيْه اليسرَئيليين بأن عليهم أن يصعدوا خارجين من مصر بأملاك جزيلة ، أجابوه : «ليتنا نخرج ولو كانت أيدينا فارغة» ، أي كالعبد المُلقى به في السّجن ، إذا قال له السّجّان : «غداً أُطلقك من السّجن ، وأعطيك مالاً وفيراً» ، أجابه : «أطلقني اليوم ، ولا تعطني شيئاً» .

وفي اليوم السّابع من عيد العُبور عَبَرَ بنو يسرَئيل خلال البحر الأحمر على اليابسة .

في بعض الأيام ، كان رجلٌ يسافر في طريقه وابنه يسبقه على الدّرب . فعرض لهما أمامهما قاطع طريق ، فوضع الرّجل ابنه خلفه . وإذا بذئب يأتي خلف الصّبي ، فحمله أبوه واحتواه في ذراعيه .

فهكذا بنو يسرَئيل ، لمّا أرهقتهم أشعّة الشمس الحادّة «نشر الله عليهم السّحاب ليَقيهم» ، ولمّا جاعوا أمطر الله عليهم خُبزاً من السّماء ، ولمّا عطشوا «أخرج لهم الماء من الصّخرة»[1] .

عيد الحَصَاد
חג הקציר

يقع «عيد الأسابيع»[2] חג שבעות أو عيد «الحَصَاد» חג הקציר في اليوم السادس من الشهر الثالث «سيوان» סיון (حزيران) . وهو يُسمّى بعيد الأسابيع لأنه عند مضيّ تسعة وأربعين يوماً ، أو سبعة أسابيع بما يُعادلها ، ما بين اليوم الثاني من عيد العُبور ، كانت العادة (إبّان كان الهيكل قائماً) أن تُقدَّم حزمة من الشّعير الأخضر ، وفي هذا الاحتفال كان يُخصّص رغيفان مخبوزان من باكورة دقيق القمح المحصود ، لكي يُقدَّما «خميراً باكورةً الرّبّ» . وهو كذلك بمثابة ذكرى لتسليم الله لَوْحي الوصايا لمُوشيْه بجبل سيناء[3] .

---

(1) انظر سفر الخروج – 17 : 6 .
(2) انظر سفر الخروج – 34 : 22 .
(3) انظر سفر الخروج 24 : 12 ؛ 34 : 1 .

ولكن لماذا لا نرى الكتاب المقدّس ينصّ على ذكر هذا العيد كباقي الأعياد الأخرى ، بأن يصرّح قائلاً على سبيل المثال : «في اليوم السّادس من الشهر الثالث نزلت الشريعة» ؟

هذا لأنه في العصور السّالفة كان الذين يحملون جُزافاً لقب «الحُكماء» يكرّسون إيمانهم وعبادتهم للكواكب[1] ، ويعدّدونها سبعة ، ويخصّصون لكل واحد منها يوماً من أيام الأسبوع . واختارت بعض الأمم الشمس إلهاً أكبر لها ، بينما فضّلت أممٌ سواها القمر ، وهكذا دَواليك ، فكانو يصلّون لها ويعبدونها . ولكنهم ما كانوا يعلمون أن الكواكب تتحرّك وتتغيّر بحسب موازين الطبيعة ، التي وضعها وبرأها الله العليّ القدير ، والتي بيده لأن يغيّرها حسبما يشاء ويريد ، وجرى أن عديداً من اليسرَئيليين اعتنقوا جهالاتهم وكفرهم هذا . ولذلك ، بما أنهم اعتبروا الكواكب سبعة ، فلقد وضع الله أشياء كثيرة أخرى بناءً على هذا العدد ، لكي يُريهم أنّما كما هو خالقهم فهو أيضاً خالق الكواكب[2] .

وأما اليوم السّابع من الأسبوع فجعله يوم شَبّات ، والسّنة السّابعة جعلها سنة راحة ، وبعد مضيّ سبع سنين سبع مرّات ، أي بعد مضيّ سبع سنين سَبتيّة (שנה שמטה) ، عيّن سنة اليوبيل היובל ، أو سنة الخَلاص . وخصّص سبعة أيام لعيد العُبور (الفصح) ، وسبعة أيام لعيد المَظالّ (سُكّوت) . وحصار أريحا دام سبعة أيام ، قام أثناءها سبعة كهنة بنفخ سبعة أبواق (شُوفار שופר) ، وهم يطوفون حول أسوارها سبع مرّات في اليوم السّابع .

لذلك ، بعد احتساب سبعة أسابيع خلال أوان نُضج القمح ، يتعيّن على اليسرَئيليين عقد احتفال في الكنيس ، لتسبيح مَن يمنع ما يشاء ولا يمتنع عنه شيء ، ومَن يُغيّر ما يشاء ولا يطاله تغيير .

---

(1) المقصود بذلك الدّيانات الوثنيّة في المشرق ، وما نقل عنها وتبعها في أوروبا بوثنيتها الغربيّة التي انتسخت خصوصاً عبادة البعل الكنعاني وأبيه إيل (صار لدى الإغريق زيوس ولدى الرومان جوپيتر) . أما الشمس فرمز لزيوس والقمر لأنثاه .

(2) ما شاء الله ، إذا كان واضعو هذه النظرية العبقريّة يرون أن الله يمكث في انتظار جهالات القوم ليضع لكونه مقاييسه بغرض إفحامهم ، فهذا ينقض عقيدتهم الدّينية لمبدأ التوحيد ولكون الخالق كلّيّ القُدرة وحكيماً ! حاشى وتعالى عن هذا الهذر .

في اليوم الأول تمّ تخليص اليسرَئيليين من نَيْر العُبوديّة ومن العبادة الباطلة ، وفي اليوم الخمسين مُنحوا الشريعة لتوجّههم في أمور معاشهم ، ولذا فلقد أُمِروا بتعداد هذه الأيام وحفظها .

وتروي الأسطورة أن بني يشْمَعيل طُلب إليهم أن يتّبعوا الشريعة ، فسألوا : «فعَلامَ تنصّ الشريعة ؟» ، قيل لهم : «لا تسرق» . فأجابوا : «فكيف نتّبعها إذاً وقد ورد في حقّ أجدادنا بالكتاب المقدّس : «يده على كل واحد»[1] ؟» .

كما طُولب بنو عيسو أن يتّبعوا الشريعة ، فسألوا أيضاً : «عَلامَ تنصّ ؟» ، قيل لهم : «لا تقتل» ، فقالوا : «لا يمكننا اتّباعها ، لأن أبانا يصحاق قد باركنا بقوله : «وبسيفك تعيش»[2]» .

ثمّ إنه لمّا طُولب بنو يسرَئيل[3] باتّباع الشّريعة ، أجاب الشعب : «سمعنا وأطعنا» .

عيد رأس السنة ، أو يوم الذّكرى
(رُوش هَشَّناه) ראש השנה

في اليوم الأول من الشهر السابع «تشري» תשרי تحلّ ذكرى خلق الدّنيا . وفيه يُنفخ في البُوق (الشُّوفار שופר) إعلاناً على النّاس أن سنةً جديدة قد بدأت دورها ، ولكي يُنذَروا على وجوب مراجعة أعمالهم بشكل دقيق ، والتّوبة عن الذّنوب حيث تجب التّوبة .

أفلا يجدر بكل إنسان عاقل ، إن كان دارياً باقتراب مثوله أمام محكمة إدانة ، أن يهيّئ نفسه لمثل ذلك اليوم ؟ أوليس يلجأ للاستشارة ، سواءٌ أكانت الدّعوى تتعلّق بقضيّة مدنيّة أم جنائيّة ؟ فكيف إذاً بالأحرى يلزمه أن يكون

---

(1) سفر التكوين – 16 : 12 .

(2) سفر التكوين – 27 : 40 .

(3) الطريف أن الباحث في تاريخ الأمم والشعوب ليس بواجد أمّةً – لا في الشرق ولا في الغرب – إلا وتجزُم بأنها خير الأمم وأرفعها شأناً ، اصطفاها الله من دون العالمين !

مستعداً لمواجهة ملك الملوك ، العالم بأسرار الصّدور وخفايا الأمور ؟ ففي هذه القضيّة ليست تفيده أيّة استشارة ، وإنّما لا يُدافع عنه ويترافع إلا التّوبة والتّقوى وأعمال البِرّ . لذلك ، فعلى الإنسان أن يراجع أعماله ويتوب عن خطاياه ، قبل حُلول يوم الدّينونة . وفي شهر «إيلول» אלול (سبتمبر) عليه أن يضع نفسه أمام مسؤوليّة العدالة الرّهيبة التي تتربّص بالبشريّة كلّها .

وهذا هو العيد الذي غفر فيه الرّبّ لليسرَئيليين الذين صنعو الشّرّ بعبادة العجل المسبوك . وفيه أمر مُوشيْه بالصّعود ثانيةً إلى الجبل ليعطيه لوحاً آخر ، بعدما كسر الأول . فهكذا يقول الحُكماء : «قال الرّب لمُوشيه في شهر إيلول : «إصعد إليَّ إلى الجبل»[1] ، فصعد مُوشيْه وتلقّى اللّوح الثاني في ختام الأربعين يوماً . وقبل صعوده أمر بنفخ البُوق عبر المُخيّم» . ومُنذ ذيّاك الحين ، جرت العادة بنفخ الشُّوفار (البُوق) في الكُنُس ، لتحذير النّاس بأن يوم الحساب في السنة الجديدة يقترب بسرعة ، ومعه يوم الدّينونة . ولذلك ، تُتلى صلوات الاسترحام مرتين في كل يوم صباحاً ومساءً ، اعتباراً من اليوم الثاني من إيلول وحتى عشيّة يوم الغُفران ، وهذه الفترة تتضمّن الأربعين يوماً الأخيرة التي قضاها مُوشيْه في سيناء[2] ، عندما رضي الله عن بني يسرَئيل ، وغفر لهم خطيئة الشّرك بعبادة العجل المسبوك .

قال الرّابي إليعيزَر : «وُلد أبرَهام ويعقوب في شهر تشري ، وفيه ماتا . وفي اليوم الأول من تشري تمّ خلق الكون ، وخلال عيد العبور وُلد يصحاق . وفي أول تشري (رأس السنة) تذكّر الله النّسوة العاقرات الثلاث : ساراه ، وراحيل ، وحَنّاه . وفي اليوم الأول من تشري وُضع عن أجدادنا كدّهم الشاقّ بأرض مصر . وفي أول تشري خُلق آدام ، ومن بداية خلقه نحتسب سنين تقويمنا ، أي مُنذ اليوم السّادس للخليقة . وفي ذلك اليوم أيضاً أكل من الثّمرة المحرّمة ، ولذلك فهو العيد المعيّن للتّوبة والتّوّابين ، حيث قال الرّب لآدام : «هذه تكونُ علامةً للأجيال التي تأتي ، ففي هذه الأيام يُدان نسلُك ، وفيها تكون التّوبة والغُفران» » .

---

(1) انظر سفر الخروج – 24 : 12 .

(2) انظر سفر الخروج – 24 : 18 .

هذا وإن الرّبّ يُعلن أوامره أربع مرّات في السنة :

فأولاً : في رأس السنة ، باليوم الأول من تشري . فيه يؤمَر بمحاسبة نفوس البشر جميعاً عن السنة القادمة .

ثانياً : في اليوم الأول من عيد العُبور . فيه يُعيَّن في القَدَر مدى إمحال غلال الحُبوب أو وَفرتها .

ثالثاً : في عيد الحَصَاد . فيه يُبارك الرَّبّ ثمار الأشجار ، أو هو يأمرها بألاّ تحمل إلا تُماماً .

رابعاً : في عيد المَظالّ . فيه يقرّر الربّ إن كان المطر سيبارك الأرض في موسمه أم لا[1] .

ويُدان الإنسان في يوم رأس السنة ، ثم يصدر عليه الحُكم مُبرَماً في يوم الغُفران . غير أن الرّابي ناتان قال إن الإنسان يُدان في جميع الأوقات .

وكان الرّابي عَقيبا يعلّم تلاميذه : «لمَ تأمر الشّريعة في عيد العُبور بتقديم حزمة من الشّعير ؟ لأن عيد العُبور هو موسم حصاد الحُبوب . فالرّبّ يقول : «قدّموا لي حزمة شعير في يوم العُبور ، أُبارك لكم القمح الذي في الحقل» .

«ولماذا في الكتاب : «وعيد الحَصَاد أبكار غَلاّتك التي تزرع في الحقل»[2] ؟ هذا لأنه في وقت عيد الحصاد تنضج الثّمار ، والله يقول : «قدّم لي رغيفين من أبكار القمح ، أُبارك لك الثّمر الذي على الشّجر» .

---

(1) يرى الباحثون أن أصول اليهوديّة متأثّرة بأديان الشرق القديم الوثنيّة الحُلوليّة ، المتمحورة في الزّراعة والحياة الرّعويّة . فيُلاحَظ هنا : غلال الحبوب ، ثمار الشّجر ، كميّة المطر . ولا ننسى أن البعل (الخصم الأكبر للتّوحيد اليهودي والأقدم منه) كان إلهاً زراعيّاً للمطر والخصب ، بينما كان أبوه إيل للخَلق والبَركة (على سذاجة تفكير الكهنة) . ومن المثير أن اسم البَعل ما زال حيّاً في بلاد الشام كلّها : «أرض بعل ، تين بعل» ، ومؤخراً سمعنا في قرى جبال اللاذقيّة (موطن الكنعانيين القُدامى أبناء «أجَريت») عبارة تعجّب رائعة : «أيْلي» (بمدّ الياء الأخيرة وإمالتها بلهجة كنعانيّة السّاحل) ، تدلّ بوضوح صارخ على اسم الإله الآب إيل ، الذي ما برح لليوم في الآراميّة والعبريّة : אל .

(2) سفر الخروج – 23 : 16 .

«ولماذا أُمرنا بتقديم قُربان شراب من الماء إلى الهيكل في عيد المظالّ ؟ لأن عندها يكون موسم المطر[1] ، والرّبّ يقول : «قدّم لي تقدمة الشّراب من الماء ، أُبارك لك مطر هذا العام» .

«ولماذا يصنعون البوق الذي يُنفخ فيه من قرن الكبش ؟ لكي يذكر الرّبّ الكبش الذي ضُحّي به بدلاً من يصحاق ، ويسمح لكرامة الأجداد الصّالحين أن تزن لصالح نسلهم ، كما هو مكتوبٌ في الوصايا العَشر : «وأصنعُ إحساناً إلى ألوف من مُحبّيّ وحافظي وَصاياي» (خُروج 20 : 6)»[2] .

في يوم رأس السّنة تُتلى في الكُنُس عُهود الميثاق الذي كان أُعطي ليصحاق للسّبب ذاته . ففيما هناك لدى الله رحمةٌ بعباده ، فهو يسمح لهم بفرصة للتّوبة لئلاّ يهلكوا في شُرورهم ، فلذا علينا كما هو مكتوب في مراثي إِرمْياه (3 : 40) أن «نفحص طُرُقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرّبّ» .

خلال السنة يكون الإنسان ميّالاً إلى الفُجور والتّمادي في معاصيه ، ولذلك يتمّ نفخ البُوق لردّه إلى رشده وتنبيهه إلى الوقت الذي يمضي بسرعة . فيُقال له : «انهض من سُباتك ، فإن ساعة العقاب تدنو» . فالله الأزلي لا يرغب بإهلاك أبنائه ، بل بمجرّد دفعهم إلى التّوبة وحُسن المآب .

وثمّة ثلاثة صُنوف من البشر يُحضرون للدّينونة : الصّالحون ، والأشرار ، والمُهملون . فأمّا الصّالحون فإن الله يُثيبهم حياةً مُنعمة ، وأمّا الأشرار فيُدينُهم ، وأمّا المُهملون فهو يُمهلهم . ومن يوم رأس السنة إلى يوم الغُفران يُمسك عن إجراء حُكمه ، فإن هم تابوا حقاً يُدخَلون في زُمرة الصّالحين وتجوز لهم الحياة الطيّبة . لكنّهم إن بقوا على حالهم يُحسبون عندها من الأشرار .

---

(1) التشابه تام بين تقدمة قُربان عيد سُكّوت الذي يبدأ في 15 تشرين الأول (أكتوبر) وبين عيد قُربان الماء لدى الكنعانيين ، فكانوا في الفترة ذاتها يقومون بشعيرة سكب الماء في جُرن مقدّس يقع على قمّة جبل حرمون – أعلى قمّة في جنوب سورية – ليُبارك بعل حرمون المطر ونبع الأعوج وغُدرانه . وعلى القمّة إلى اليوم آثار معبد وثني (قصر عنتر) كان به كتابة يونانيّة قديمة استلبها آثاري إنكليزي لصالح جمعيّة .P.E.F عام 1880 .

(2) انتهى كلام الرّابي عَقيبا .

وثمّة ثلاثة أصوات للبُوق يُعَبَّر عنها في الكتاب المقدّس : فالصّوت الأول صوتٌ رَخيم (تقيعاه תקיעה)[1]، والثاني صوت تحذير أو وعيد مُرتجف (تِرُوعاه תרועה)[2]، ثم الثالث صوتٌ رَخيمٌ من جديد (تِقيْعاه תקיעה) .

فالصّوت الأول يمثّل الصّحوة الأولى للإنسان نحو التّوبة ، ولذا عليه أن يختبر قلبه جيداً ويتخلّى عن طُرُقه الشّرّيرة وأن يُنقّي سريرته ، كما هو مكتوب : «ليترك الشّرّير طريقه ورجلُ الإثم أفكارَه ، وليتُب إلى الرّبّ فيرحمه»[3] .

أما الصّوت التّحذيري فيمثّل الأسف الذي يشعر به الإنسان النّادم على سُوء مسلكه ، وعلى عزمه الصّادق على العودة إلى جادّة الصّلاح .

والصّوت الأخير هو الصّوت الرّخيم من جديد ، الذي يمثّل رغبةً مُخلصة في الإبقاء على القلب التّائب مجرّداً من الذّنوب .

والكتاب المقدّس يقول لنا : «بل الكلمة القريبة منك جداً وفي قلبك لتعمل بها» (تثنية 30 : 14) . فتعلّمنا هذه الآية أن التّوبة هي أقرب إلى المؤمنين بالله وكتابه ممّا يدّعيه المتزمّتون . فثمّة كفّارات عسيرة يفرضها هؤلاء المُتزمّتون على المُذنب بينهم : فعليه صيام أيام عدّة ، أو أن يمشي حافياً على دروب وعرة ، أو أن يبيت الليل في العَراء . ولكن في الحقيقة ليس مطلوباً منا أبداً أن نطال قاع المُحيط أو نرتقي قمم الجبال ، حيث أن كلمة الله المقدّسة تقول لنا : «ليست هي في السّماء ولا هي في عبر البحر ، بل الكلمة قريبة منك جداً»[4] .

هذا ويُمكن لنا القيام بالتّوبة عبر هذه الطرق التالية :

أولاً : لَفظاً بالكلام ، الصّادر عن قلب سليم .
ثانياً : بمشاعرنا المُفعمة بالأسى على ما اقترفناه من ذُنوب .
ثالثاً : بصالح الأعمال في تالي الأيام .

---

(1) منها المُفردة العبرية : תקוע تيْقَع : النّفخ في الصُّوْر .
(2) مثال ذلك في العبريّة : תרועת הצוצרה تروعَت هَصُّوصراه : صوت البُوق .
(3) سفر يشَعْياه – 55 : 7 .
(4) سفر التثنية – 30 : 12 .

أعلن الرّابي سعدياه أن الله أمرنا بالنّفخ في البُوق يوم رأس السّنة لعشرة أسباب ، هي :

أولاً : لأن في هذا اليوم كانت بداية الخَلق ، عندما بدأ حُكم الله على الكون والخليقة ، فبما أنه من المألوف نفخ الأبواق لدى تتويج ملك ما ، علينا بالطريقة ذاتها أن نُعلن بصوت البُوق أن الخالق هو مَلِكُنا ، كما قال داود : «بالأبواق وصوت الصُّوْر اهتفوا قُدّام المَلِك الرّبّ»[1] .

ثانياً : بما أن يوم رأس السنة هو أول أيام التّوبة العشرة ، فنحن نقوم بنفخ بُوق الشُّوفار كدعوة لحثّ الجميع على الأوبة إلى الله والتّوبة إليه . فحتى لو لم يفعلوا ، فهم على الأقل قد نالوا تحذيراً ، ولا يمكن لهم أن يحتجّوا بمبرّر الجهل . وعلى النّحو ذاته ، نرى أن ملوك الدّنيا يُعلنون أوامرهم ومراسيمهم ضمن هذا الإجراء أصولاً ، لئلاّ يقول قائلٌ من النّاس : «لا عِلمَ لنا بهذا» .

ثالثاً : ليذكّرنا بالشّريعة التي نزلت في جبل سيناء ، حيث يُقال : «وصوتُ بُوق شديد جداً» וקל שפר חזק מאד (سفر الخروج 19 : 16) . وأيضاً لكي يذكّرنا أن علينا تجديد العهد على أنفسنا بتنفيذ وصاياه ، كما فعل أجدادنا فقالوا : «كلّ ما تكلّم به الرّبّ نفعل»[2] כל אשר־דבר יהוה נעשה .

رابعاً : لكي يذكّرنا بالأنبياء ، الذين يُشبّهون بالرُّقباء الحارسين الذين ينفخون في بُوق التّحذير ، كما نجد في سفر يَحزَقْئيل (33 : 4) : «فإذا سمع السّامع صوت البُوق ولم يتحذّر فجاء السّيف وأخذه ، فدمُه يكون على رأسه . وأمّا مَن يتحذّر فيخلّص نفسه» .

خامساً : ليذكّرنا بخراب الهيكل وصيحات الحرب المُرعبة التي يُطلقها عدوّنا : «لأنكِ سمعتِ يا نفسي صوتَ البُوق وهُتافَ الحرب» (يِرمْياه 4 : 19) . لذلك ، فإنه يتوجّب علينا عندما نسمع صوت الشُّوفار أن نتوسّل إلى الله لإعادة بناء الهيكل .

---

(1) مزامير داود – 98 : 6 .
(2) سفر الخروج – 19 : 8 .

سادساً : ليذكّرنا بعهد يصحاق ، الذي قدّم نفسه قُرباناً للأضحية عن طيب خاطر ، تمجيداً لاسم الله القُدّوس .

سابعاً : عندما نسمع صوته المُرعب ، قد يدفعنا ذلك من جَرّاء الخوف إلى التّواضُع أمام سيّد الكون ، لأن من طبيعة هذه الآلات الحربيّة التسبّب في شعور بالرُّعب ، كما لاحظ النّبي عاموس עמוס : «أم يُضرَب بالبُوق في مدينةٍ والشّعبُ لا يرتعد ؟»[1] .

ثامناً : لكي يذكّرنا بيوم الدّينونة العظيم والرّهيب الذي يُنفَخ فيه بالصُّوْر ، كما نجد في سفر صَفَنياه (1 : 14-16) : «قريبٌ يومُ الرّبّ العظيم ، قريبٌ وسريعٌ جداً ، يومُ بُوقٍ وصوتُ نفير[2]» יום שופר ותרועה .

تاسعاً : لكي يذكّرنا بأن ندعو لحلول أوان الوقت الذي يُجمع فيه منبوذو بني يسرَئيل سويّاً ، كما هو موعود في سفر يشَعْياه : (27 : 13) : «ويكون في ذلك اليوم أنه يُضرَب ببُوق عظيم ، فيأتي التائهون الهالكون في أرض أشّور» .

عاشراً : لكي يذكّرنا بقيامة الأموات ، وبإيماننا التّامّ بذلك . يقول النبي يشَعْياه[3] : «يا جميع سكّان المَسكونة وقاطني الأرض ، عندما ترتفع الرّاية على الجبال تنظرون ، وعندما يُضرَب بالبُوق تسمعون !» .

لذلك كلّه ، علينا أن تبقى قُلوبنا مُعلّقة بهذه الأعياد ، وأن نطبّق الوصيّة التي تأمرنا بها التّوراه ، كما هو مكتوب[4] : «هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرّبّ إله آبائك ، لتمتلكها كلّ الأيّام التي تحيون على الأرض» .

* * *

---

(1) سفر عاموس – 3 : 6 .

(2) في الترجمة العربية : «يوم بُوق وهُتاف» ، وهذا غلط فالمفردة العبرية תרועה «تروعاه» تعني : صوت النفخ في البوق ، تقدّمت ص 373 .

(3) سفر يشَعْياه – 18 : 3 .

(4) سفر التثنية – 11 : 32 ؛ 12 : 1 .

عيد يوم الغُفران
(يوم كيپور) יום כפור

من الطبيعي أن قلوب كل مَن يخافون الله ينبغي أن ترتجف لدى تصوُّر فكرة أن جميع أعمال النّاس يدري بها الخالق تمام الدّراية ، وأنها سوف تُحتسَب عليهم خيراً أم شراً . غير أن الله على الدّوام جاهزٌ لقبول التّوبة الصّادقة . ولهذه التّوبة درجاتٌ سَبع ، هي :

أولاً : توبة الإنسان الصّالح ، الذي يتوب عن خطأه بمجرّد أن يُدرك ذنبه . فهذه التّوبة هي خير الدّرجات وأتمّها كمالاً .

ثانياً : توبة الإنسان الذي عاش بعض الوقت حياةَ مَعصية ، لكنه في أيّام فَورة شبابه يتخلّى عن طُرُقه الشّرّيرة ، ويكبح في نفسه مُيوله الفاسدة . كما قال شلومو : «فاذكُر خالقَك في أيّام شبابك» וזכר את־בוראיך בימי בחורתיך (الجامعة 12 : 1) . فبادر إذاً بترك طُرُقك الشّرّيرة إبّان فَورة حياتك .

ثالثاً : توبة الإنسان الذي حالَ سببٌ ما دونه واقتراف ذنب كان ينويه ، ثمّ أحسّ حقاً بالنّدم على نيّته الخبيثة . يقول صاحب المزامير : «طُوبى للرّجُل المُتّقي الرّبّ»[1] . ولكن أيُراد به الرّجل دون المرأة ؟ بل البشر أجمعهم ، لكن الكلمة المُستخدمة تفيد معنى القوّة ، أي مَن يتوبون إبّان شبابهم وفَورة حياتهم .

رابعاً : توبة الإنسان الذي تكون معصيتُه في حقّ نفسه ، فيُوبَّخ عليها ، كما في مثال أهل نينوى ، إذ أنهم لم يتوبوا حتى توجّه إليهم يُوناه مُنذراً : «بعد أربعين يوماً تنقلبُ نينوى»[2] . وكان أهل نينوى يؤمنون برحمة الله ، فرغم أن أمر الله قد صدر في حقّهم لم يُثنهم ذلك عن المُبادرة إلى التّوبة . «فلمّا رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة ، ندمَ اللهُ على الشّرّ الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه»[3] .

---

(1) مزامير داود – 112 : 1 .
(2) سفر يوناه – 3 : 4 .
(3) سفر يوناه – 3 : 10 .

ولذلك فإن الحاخامين يقولون : «يا أيّها الإخوة ، لا لُبس المُسوح ولا الصّيام يعودان بالمغفرة على الذّنوب ، وإنما يكون ذلك بتوبة القلب وبأداء صالح الأعمال ، فلم يُذكَر عن أهل نينوى أن «الله رأى صيامهم ومُسوحهم» ، بل «رأى الله – أعمالهم – أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة» » .

خامساً : توبة مَن يتوبون إن هُم مَسَّهُم الضُّرّ . فكم يتّسم قبول توبة هؤلاء بالنُّبل بما يسمو كثيراً عن طبيعة البشر ! مثال ذلك قصّة يفتاح الجلعادي : «أمَا أبغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي ، فلماذا أتيتم إليّ الآن إذ تضايقتُم ؟» (سفر القضاة 11 : 7) . غير أن الرّحمة اللامحدودة لإلهنا تتقبّل حتى مثل هذه التّوبة ، كما هو مكتوب : «عندما ضُيِّق عليك وأصابتك كلّ هذه الأمور . . ترجع إلى الرّبّ إلهك»[1] . وعلى هذا المبدأ وُضع مَثَل الآباء الشائع : «التّوبة وصالح الأعمال درعٌ واقٍ دون البَلوى والعقاب» .

سادساً : توبة الطّاعن في السّنّ . فحتى إن بلغ الإنسان أرذلَ العُمر وغدا ضعيفاً واهناً ، ثم تاب من قلبه ، فإن توبته تُقبَل . كما يقول صاحب المزامير[2] : «تُرجع الإنسان إلى الغُبار ، وتقول : «ارجعوا يا بني آدام» » ، بمعنى أن الإنسان بإمكانه الرّجوع في أيّ وقت أو بأيّ عُمر : «ارجعوا يا بني آدام» .

يقول الحاخاميم : «حتى وإن كان الإنسان صالحاً في شبابه وقوّته ، لو أنه عصى أوامر الله في شيخوخته فإن فَضل صَلاحه السّابق يزول عنه ، كما هو مكتوب : «إذا رجع البارُّ عن برّه وعمل إثماً ، ومات فيه ، فبإثمه الذي عمله يموت» (يُحَزْقيل 18 : 26) . غير أن الإنسان الذي كان شرّيراً في مُقتبَل عُمره ، ثم شعر بندم حقيقي وتاب في أواخر عُمره ، لا يعود «شرّيراً» بعدها . ولكن هذه التّوبة مع ذلك ليست بمحمودة إن هي تأخّرت كثيراً» .

سابعاً : وهي آخر درجات التّوبة والمغفرة : توبة مَن يكون عاصياً لخالقه طوال أيام حياته ، ثم يرجع إليه عندما تمتدّ إليه يدُ الموت .

---

(1) سفر التثنية – 4 : 30 .

(2) مزامير داود – 90 : 3 .

يقول الحاخاميم إن كان ثمّةَ امرؤٌ مريضاً ودَنَت ساعةُ موته ، فعلى الحُضور أمام سرير موته أن يقولوا له : «اعترف بذُنوبك أمام خالقك» .

فينبغي لمَن كان مُشرفاً على حَتفه أن يعترف بذُنوبه وتقصيره . وما المريض المُحتضر إلا كرجل يقف أمام محكمة مُقامة لإحقاق العدل ، فإن كان لهذا الأخير مُحامون يترافعون عنه ويُزكّون دعواه ، فليس للأوّل ما يُحامي عنه إلا التّوبة وصالح الأعمال . كما هو مكتوب في سفر أيّوب : (33 : 23-24) : «إن وُجد عنده مُرسَلٌ وسيطٌ واحدٌ من ألف ، ليُعلن للإنسان استقامته ، يتَراءف عليه ويقول : «أطلقه عن الهُبوط إلى الحُفرة ، لقد وجدتُ فِديةً» » .

وعلى ذلك ، لدينا سبع درجات من التّوبة والتّكفير عن الذّنوب ، فمَن يُغفلها جميعاً عليه أن يُلاقي العذاب في الآخرة . لذلك فقُم بالواجبات المُلقاة على عاتقك ، وتُب طالما كان المجال أمامك مُتاحاً لإصلاح ما أسأت به . كما يقول الحاخاميم : «تُب وإن حضرك الموت ، قبل أن تصير إلى رمسك» .

وكان النّبي يَحزَقْئيل يُنادي مُنذراً : «يا بيت يسرَئيل ، تُوبوا وارجعوا عن كل معاصيكم ، ولا يكونُ لكم الإثمُ مَهلكةً !»[1] בית ישראל שובו והשיבו מכל־פשעיכם ולא־יהיה לכם למכשול עון: فماذا يعني هذا الإنذار ؟ يعني أنه بغير التّوبة سوف تموتون .

ولقد تمّ تصوير مسألة التّوبة بهذه الحكاية :

يُحكى أنه كانت هناك سفينة كبيرة تُبحر عدّة أيام في عُرض المُحيط ، وقبل أن تبلغ وُجهتها المنشودة هبّت عليها ريحٌ وأنواءٌ عاتية حَرَفتها عن مسارها ، إلى أن تهادَت في النّهاية بالقرب من جزيرة بهيّة المنظر ، فأرساها بحّارتها عندها . وكانت في هذه الجزيرة تنمو أصناف الأزاهير والأقاحي الفوّاحة الخلاّبة والفواكه اللّذيذة بـ«إسراف بالغ» ، أمّا الأشجار الباسقة فكانت تُلقي بظلالها الوارفة الماتعة على جنبات المكان ، الذي بدا لركّاب السّفينة بأبلغ ما تشتهيه النّفس من الإمتاع والرّاحة .

---

(1) سفر يَحزَقْئيل - 18 : 30 .

وانقسم هؤلاء الرّكاب إلى خمسة فرق : فقرّرت الفرقة الأولى منهم عدم مُغادرة السّفينة ، قائلين : «لعلّ ريحاً مُواتيةً تهبّ، ويمكن سحب المرساة وتتابع السّفينة إبحارها ، فنُترَك وراءها مُخلّفين . لسنا نريد المخاطرة بفقدان الوصول إلى وجهتنا من أجل المُتعة المؤقّتة المُتاحة على هذه الجزيرة» . بينما مضت الفرقة الثانية إلى الشاطئ لبعض الوقت ، فاستمتعت بعطر الأزاهير ، واستطابت مذاق الفواكه ، وعادت إلى السّفينة مُغتبطةً وقد ساورها النّشاط ، فوجدت أماكنها على حالها ولم تفقد شيئاً ، إلا أنها اكتسبت على صعيد الصّحّة وطيب النّفس شيئاً كثيراً من جرّاء الاستجمام في زيارة الجزيرة .

أما الفرقة الثالثة فزارت كذلك الجزيرة ، لكنها بقيت طويلاً حتى هبّت الرّيح المواتية ، ولمّا يبلغوها إلا بالكاد وكان بحّارتها آخذين في سحب الأنجر (المرساة) ، وفي خلال عجلتهم وفوضى اندفاعهم فقد الكثير منهم أماكنهم ، ولم ينعموا بالرّاحة خلال تتمّة الرّحلة كما كان الأمر في بدايته . لكنهم مع ذلك كانوا أكثر تعقّلاً من الفرقة الرابعة ، فلقد مكث هؤلاء الأخيرون على متن الجزيرة طويلاً جداً ، وانغمسوا حتى الثُّمالة في مُتعها ، وتركوا جرس التّحذير في السّفينة يُجلجل دون أن يُلقوا إليه بالاً . وقالوا : «ها هي ذي الأشرعة ما زالت لم تُنشَر بعد ، فبوسعنا أن نغرف من المُتعة المزيد لبضع لحظات أخرى» . وراح الجرس يجلجل من جديد ، لكنهم مكثوا مُتوانين مُتباطئين ، وقالوا في أنفسهم : «لا شكّ أن الرُّبّان لا يُبحر دوننا» . لذا فقد مكثوا على الشاطئ حتى أبصروا السّفينة تتحرّك ، فما كان منهم إلاّ أن هبّوا بعجلة طاغية وسبحوا بإثر السّفينة وراحوا يتسلّقون جوانبها ، فمن جرّاء ذلك أصيبوا بقُروح وخُدوش لم يُشفوا منها في غُضون بقيّة الرّحلة .

أما الفرقة الخامسة ، فيا حسرةً عليها ! راح أولئك يأكلون ويشربون ويعْمَهون في الملذّات والملاهي ، إلى درجة أنهم لم يسمعوا صوت الجرس ، ولمّا انطلقت السّفينة خلّفتهم وراءها . وراحت الوحوش الضّارية المُختبئة في الأدغال الكثيفة تصطادهم وتفترسهم ، وأمّا مَن نجا منهم من هذه البَليّة فقد هلك من فَرط التُّخمة .

فأمّا «السّفينة» فهي أعمالنا الصّالحة التي تحملنا إلى وجهتنا ، أي الآخرة . و«الجزيرة» تمثّل متع الحياة الدُّنيا ، التي أحجمت المجموعة الأولى من الرّكاب عن تذوّقها أو النّظر إليها ، ولكنّها عندما يُستمتَع بها - كما فعلت الفرقة الثانية - فهي تجعل حياتنا مُريحةً ماتعة ، دون التّسبّب لنا في إهمال واجباتنا المفروضة . غير أن هذه المُتع ينبغي ألاّ يُسمَح لها أن تستولي على نفوسنا ومَلَكاتنا بأكثر ممّا ينبغي . والواقع أن بوسعنا الرّجوع والعودة - كما فعلت الفرقة الثالثة - فيما يكون الوقت لا يزال مُتاحاً ، وإن كان الثّمن بعض الخُسران ، أو حتى كالفرقة الرّابعة التي لم تتمّ لها النّجاة إلا في الرَّمَق الأخير ، مع كثير من الكَدمات والجروح التي لا يمكن أن تُشفى بالكامل . لكننا نبقى في خطر دائم بأن نبيت كالفرقة الأخيرة ، فنُمضي حياتنا بأسرها ونحن نلهث وراء الباطل والتّفاهات ، ناسين المستقبل ، فنهلك حتى من السّمّ المستتر ضمن الأطايب التي تُغوينا .

فمَن هو المُستحقّ للأسى ؟ ومَن هو البائس ؟

ذلك هو مَن يترك لورثته ثروةً طائلة ، ويأخذ معه إلى قبره عبئاً ثقيلاً من الذّنوب . ومَن يجمع الثّروة بغير حقّ ، «مُحصِّل الغِنى بغير حقّ ، في مُنتصف أيّامه يتركه» (إرميا 17 : 11) . وعند أبواب دار الخُلود لا يُمكن للذّهب أو للفضّة أن تُرافق رُوح الإنسان ، بل إن الأعمال الصّالحة والإيمان بالله هي التي تكون دليلاً لرُوحه إلى النّجاة .

ورغم أن الله رؤوفٌ رحيم ويغفر ذُنوب الإنسان المُسيء بحقّه ، فإن مَن يُسيء إلى جيرانه وإلى النّاس عليه أولاً أن يتحصّل على مغفرة جيرانه والنّاس من قبل أن يطلب مغفرة الرّبّ[1] . قال الرّابي إليعزر[2] : «هذا ما ينبغي لكم فعله ، كما هو مكتوب : «لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرّبّ» (ليويين 16 : 30) . ففي يوم الغُفران تُتاح المغفرة لذُنوب الإنسان تجاه باريه ، ولكن ما خلا الذّنوب الواقعة على النّاس ، فتلك بحاجة إلى تنازُلهم أولاً» .

---

(1) هذه القاعدة الشرعية موجودة بشكل مُشابه تماماً في الإسلام .

(2) كان هناك اثنان من مشاهير الحاخاميم بهذا الاسم : إليعزر بن شمعون (إليعزر الكبير) ، وإليعزر بن عازورياه . والأول كان مُعلّماً للثاني .

فإن طُولِب إنسانٌ بالصَّفح عن أخيه الإنسان ، عليه أن يفعل ذلك عن طيب نفس ، وإلاّ فكيف يجرؤ في يوم الغُفران على طلب المغفرة على خطاياه تجاه الله الأزلي ؟ ولقد جرت العادة في هذا اليوم للإنسان أن يطهّر نفسه كلّياً ، جسدياً ورُوحياً ، وأن يرتدي ثياباً بيضاء نظيفة ، ليتمثّل بذلك كلام النّبي يشَعْياه : «إن كانت خطاياكم كالقِرْمِز تبيضُّ كالثّلج»[1] .

* * *

يُحكى أن عُمدة إحدى المُدُن أرسل في إحدى المرّات خادمه إلى السّوق لشراء بعض السّمك . فلمّا وصل المذكور إلى موضع السّوق وجد أن السّمك قد بيع كلّه إلا واحدة ، وكان ثمّة خياط يهودي على وشك شراء هذه السّمكة المُتبقّية الوحيدة . فقال خادم العُمدة : «أدفعُ بها بها قطعة ذهبيّة» ، فقال الخياط : «فأنا أدفع اثنتين» . فأبدى رسول العُمدة عندها استعداده لدفع ثلاث قطع ذهبيّة بها ، غير أن الخيّاط تمسّك بالسّمكة ، وقال إنه لن يتخلّى عنها ولو اضطرّه الأمر لدفع عشر قطع ذهبيّة ثمناً لها . فما كان من خادم العُمدة إلاّ أن عاد إلى الدّار ، وروى لسيّده مُجريات الأمر وهو يتميّز غيظاً . فأرسل العُمدة في طلب الرّجل الذي يُعدّ واحداً من رعيّته ، فلمّا مثُل هذا الأخير أمامه سأله :

«ما هي صنعتُك ؟» .

أجاب الرّجل : «أنا خيّاط يا سيّدي» .

«إذاً كيف يمكنك أن تدفع ثمناً باهظاً في سمكة ، وكيف تجرؤ على إهانة كرامتي من خلال عرض مبلغ أكبر ممّا عرضه خادمي ؟» .

أجاب الخيّاط : «إنّي أصومُ غداً ، فلذا رغبتُ بالسّمكة لآكلها اليوم ، فأتقوّى بها على صيام الغد . ولم أكُ مستعداً للتخلّي عنها ولا مُقابل عشرة قطع ذهبيّة» .

سأل العُمدة : «فما فضلُ يوم الغد على سواه من سائر الأيّام ؟» .

---

(1) سفر يشَعْياه - 1 : 18 .

أجاب الرّجل : «فما هو فضلُك على سائر الرّجال ؟» .

«بأن المَلِك قد عيّنني لهذا المنصب» .

أجاب الخيّاط : «إذاً فلتعلمْ أن مَلِك المُلوك قد عيّن هذا اليوم أقدس من كلّ الأيام الأخرى ، حيث أننا في هذا اليوم نرجو الله أن يغفر لنا خطايانا» .

أجاب العُمدة : «إن كان الأمر كذلك فأنتَ على حقّ» . وانصرف اليسرَئيلي لشأنه آمناً مُطمئنّاً .

فهكذا إن نوى الإنسان طاعة الله ، لا شيء يُثنيه عن مقصده . في هذا اليوم أمر الله أبناءه بالصّيام ، لكن عليهم أن يقوّوا أجسادهم على طاعته بأن يأكلوا في اليوم السّابق له . فمن واجب الإنسان أن ينقّي نفسه ويطهّرها جسدياً ورُوحيّاً ، مع اقتراب يومه الأكبر . وإن عليه أن يكون تامّ الاستعداد للمُثول في أيّة ساعة أمام الحضرة الإلهيّة الجبّارة ، مُتّخذاً التّوبة وصالح الأعمال خير رفيق له .

كان لرجل ثلاثة رفاق ، وكان يحبّ أحدهم محبّةً جَمّة ، وكان يحبّ الثاني أيضاً إنما ليس بدرجة الأول ، أما تجاه الثالث فلم يكن شعوره مُبالياً .

فجرى أن ملك البلاد أرسل مقدّماً إلى هذا الرّجل ، يأمره بالحضور فوراً أمام العَرش . فارتعدت فرائص الرّجل للأمر ، وحسب أن بعض النّاس قد تكلّم باطلاً في حقّه ، أو لربّما افترى عليه تُهمة زُور أمام ملكه ، ولمّا خشي من المُثول بمفرده أمام الحَضرة الملكيّة ، فقد ارتأى أن يطلب من أحد رفاقه أن يذهب معه . فأولاً ، بطبيعة الحال طلب ذلك من أعزّ رفاقه ، لكن هذا أحجم على الفور عن الذّهاب ، دون أن يقدّم عُذراً أو سبباً لقلّة وفائه . فما كان من الرّجل إلا أن طلب ذلك من رفيقه الثاني ، الذي قال له :

«سوف أذهب معك إلى حدّ بوّابة القصر ، ولكني لا أدخل معك أمام الملك» .

فلمّا اعتراه اليأس طلب الأمر ذاته من رفيقه الثالث الذي كان مُهملاً شأنه ، فإذا به يجيبه على الفور :

«لا تخشَ شيئاً ، فأنا ذاهبٌ معك وتراني أتكلّم في حقّك بكل خير ، ولا أتركك وحيداً حتى تنجلي عنك غمّتك هذه» .

فأمّا «الرّفيق الأول» فهو ثروة الإنسان ، التي ينبغي له أن يخلّفها وراءه عندما يموت . و«الرّفيق الثاني» يتمثّل بالأقارب الذين يتبعونه إلى القبر ويتخلّون عنه بعدما يُهال على جُثمانه التّراب . وأما «الرّفيق الثالث» الذي دخل معه إلى حضرة الملك فهو بمثابة الأعمال الصّالحة خلال حياة الإنسان ، التي لا تتخلّى عنه أبداً ، بل تصاحبه وتشدّ من أزره أمام ملك الملوك ، الذي لا يُقيم لأحد مهابةً ولا يأخذ من أحد رشوةً .

وكان الرّابي إليعيزر يعلّم تلاميذه بما يلي :

«في هذا اليوم العظيم والرّهيب لا يجد الملاك «سَمال» סמל (الرَّقيب) أي حَوب أو ذنب يشُوب بني يسرَئيل ، فيخاطب العليّ القدير قائلاً :

«أيّها الملك الربّ ، على وجه الأرض في يومنا هذا ثمّة شعبٌ مُطهّر ومُبرأ ، وبنو يسرَئيل هم كالملائكة في يوم الغُفران . وكما يحلّ السّلام في السّموات فهو يحلّ الآن عند هذا الشّعب ، المُسبّح باسمك القُدّوس» .

«فيستمع الله لهذه الشّهادة من مَلاكه ، ويغفر لشعبه كافّةَ خطاياهم» .

ولكن رغم أن الله العظيم يغفر لنا خطايانا على هذا النّحو ، علينا ألا نعود فنقترفها من جديد ونظنّ بأننا مُحصّنون ، لأن مَن يقول : «لعلّي أرتكبُ لي ذنباً ثم أتوب» ليست له مغفرة ولا كفّارة» .

* * *

عيد المَظالّ
(حَج هَسُكُّوت) חג הסכות

يبدأ عيد المَظالّ في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع «تشري» תשרי (أكتوبر) ، وخلال مدّته البالغة سبعة أيام يؤمَر اليسرَئيليّون بالإقامة في المَظالّ أو السّقائف . ولقد تمّ وضع هذا العيد للإبقاء في ضمائرهم على ذكرى الخيام التي كانت لهم بمثابة البيوت خلال إقامتهم أربعين سنة في البريّة . ورُموز هذا العيد هي سُعف النّخيل ، التي تُربط بها عساليج الآس والصّفصاف والأُتْرُج .

في هذا العيد نُؤمَر بالاحتفال والفرح ، لأن مشيئة الله لا ترتضي لنفوسنا الابتلاء على الدّوام ، كما في عيده المُكرّم يوم الغُفران . بل بعدما نكون قد خفضنا جناح نُفوسنا وعُدنا إلى خالقنا طائعين تائبين ، نُؤمَر بالاحتفال مع أسرنا وجيراننا . ولذلك فنحن ندعو هذا العيد بموسم احتفالنا .

لقد قال الرّب : «لا يكون هذا لكم صوماً كيوم الغُفران ، بل تأكلون وتشربون وتبتهجون فيه ، وتُضحّون بذبيحة السّلامة» . والكتاب المُقدّس ينصّ في متنه على عبارة[1] : «سبعة أيّام للرّبّ» ، ولذا فعلينا في خضمّ بهجتنا أن نُكرّس له طرفاً صالحاً من تفكيرنا .

فهكذا يأمَرنا الملك الكلّي القُدرة بأن ننتقل من مساكننا الدّائمة وأن نسكن سبعة أيام تحت السّقائف . وهذه الوصيّة تعلّمنا أن الإنسان ينبغي ألا يركن كثيراً إلى البناء المهيب الذي قد يكون شيّده ، وألا يستغرق في تزيينه بالزّخارف المُكلفة ، وكذلك ينبغي له ألاّ يبذل ثقته بالكامل لبني البشر ، ولا حتى الحكّام في بلده . بل عليه الاعتماد كلّياً على الله العظيم ، الذي قال : «ليَظهر الكون إلى الوجود» ، فله وحده الحَوْل والقوّة والسُّلطان . وهو وحده الذي لا يتحوّل ولا يتبدّل ، ولا يكون أبداً غير ما صرّح عن نفسه ، كما هو مكتوب : «ليس الله إنساناً فيكذب» (سفر العدد 23 : 19) לא איש אל ויכזב ، وهو وحده الذي يحفظنا من كلّ سوء .

---

(1) سفر اللّيويين – 23 : 34 .

وعيد المظالّ يحلّ في الخريف ، بعد أن يتمّ تخزين محاصيل الحقل في الأهراء ، تبعاً لكلمة الكتاب المقدّس : «تعمل لنفسك عيد المَظالّ سبعة أيّام ، عندما تجمع من بيدرك ومن معصرتك» (تثنية 16 : 13) חג הסכת תעשה לך שבעת ימים באספך מגרנך ומיקבך .

ففي هذا الموسم ، عندما يرى الإنسان الوفرة حوله ، لربّما يأخذ بقلبه التّيه والكبر ، وقد يشعر أنه يُغني بيته ويُضفي عليه بذخاً ورونقاً . فلهذا السّبب يُؤمَر بمغادرته لبعض الموسم ، وبأن يسكن تحت السّقائف حيث تتوجّه أفكاره إلى الله ، ففي هذا السّكن المُقام بشكل غشيم وهزيل وغير المحمي من المطر ، يمكن له أن يتذكّر بأنه من خلال هذا المطر الذي أرسله العليّ القدير في أوان موسمه حصلت الوفرة في غلاله ، ومن خلال هذا التّأمُّل فهو يؤمن بحقيقة أن كلّ ما هو جارٍ في مُلكه إنما كان بفضل من الله ومنّته ، لا من جرّاء تدبيره هو وقوّته .

وهذه السُّكنى في السّقائف من شأنها أن تُعيد إلى الذّهن الطريقة التي عاش بها اليسرَئيليّون أربعين سنة بعدما غادروا مصر ، بمجرّد جدران مؤقّتة لتحميهم من حرّ الصّيف اللاهب وبرد الشتاء القارس ، ومن الرّياح والعواصف . وكيف كان الله معهم عبر أجيالهم كلّها وحُفظوا من كلّ شرّ .

وحسب ما يرى بعض الحاخاميم لم يسكن اليسرَئيليّون بالفعل في سقائف بالبريّة ، وإنّما أحيطوا بالغَمام ، بسبع غمامات تحديداً : أربع غمامات ففي كلّ جانب واحدة ، والخامسة ظلٌّ يقيهم حرارة الشّمس اللاهبة ، أما السّادسة فعمودٌ من نار يُنير لهم في الليل (فكان في مقدورهم الرّؤية في الليل بالوضوح ذاته الذي في النّهار) ، والسّابعة كانت تسبق مسيرهم وتهديهم إلى سَواء السّبيل[1] .

وكان ارتحال بني يسرَئيل من مصر في شهر «نيسان» ניסן (أبريل) ، ولقد عملوا هذه السّقائف على الفور ، فاستخدموها أربعين عاماً . وعلى ذلك كانوا يُقيمون في السّقائف على مدار العام بأكمله ، ولذا فكان من الممكن لنا تخليد ذكرى هذا الأمر إمّا في الرّبيع أو الخريف ، وإمّا في الصّيف أو الشتاء على حدٍّ

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 13 : 21 .

سَواء . فلماذا إذاً عيّن الله الخريف موعداً لهذه الشّعيرة ؟ هذا لأننا إن أقمنا في السّقائف بأيام الصّيف ، تصبح المسألة مُلتبسةً بين أمرين : أنحن نفعل ذلك التزاماً منّا بأمر الله ، أم نفعله لمسرّتنا وإمتاع نُفوسنا ؟ ذلك بأن كثيراً من النّاس يطلبون الانتجاع إلى البقاع الهَويّة في هذا الفصل ، وأمّا في الخريف عندما تطرح الأشجار أوراقها ، ويُضحي الهواء بارداً قارساً ، ويكون قد حان أوان إصلاح بيوتنا لفصل الشتاء ، إن نحن أقمنا في هذه المساكن المؤقّتة فإنما يكون في ذلك إظهارٌ أكيدٌ للرّغبة في تنفيذ أوامر الخالق .

وعيد المظالّ هو أيضاً عيدٌ لجمع الغلال ، حين ينبغي لنا أن نحمد الله ونشكره على الكَرَم الذي عامَلَنا به ، والغنى الذي باركَنا بالحصول عليه . فعندما يقدّم الله الأزلي للإنسان قُوتَه ، عليه في الأمسيات الطويلة التي تلي ذلك أن يتفكّر وأن يدرس كتابه المقدّس ، وأن يجعل من هذا العيد بالفعل «عيداً للرّبّ» ، وليس عيداً مُقتصراً على مسرّة النّفس .

هذا وإن الأصناف الأربعة من مملكة النّبات التي نتّخذها في هذا العيد يُقصد بها تذكيرنا بالعناصر الأربعة للطبيعة ، التي تعمل تحت توجيه ورضا العليّ القدير والتي بغيرها بنعدم وجود الكائنات والأشياء كافّة . ولذلك فإن الكتاب المقدّس يأمرنا في «عيد الرّبّ» هذا بأن نتوجّه إليه بالحمد والشّكر ، وأن نفرح أمامه بهذه الأصناف الأربعة ، وكلّ منها يمثّل واحداً من العناصر المذكورة .

يرد في الكتاب المقدّس (ليويين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم ثمر شجر الحمضيات» (هادار הדר ، وهو هنا الأُتْرُج אתרוג) ، ولونه أصفر فاقع فيشبه النّار . والصّنف الثاني هو سَعفة النّخيل (في العبرية : لُولاف לולב) ، والنّخيل شجرٌ مرتفع وينمو قائماً مُنتصباً في الهواء ، وثمرته حُلوة ولذيذة الطعم ، فهذه إذاً تمثّل العنصر الثاني ، أي الهواء . أمّا الثالث فهو غُصن شجرة الآس עץ עבת ، وهي من أدنى الشّجيرات ارتفاعاً ، تنمو على ارتفاع واطئ من الأرض وطبيعتها باردة ويابسة كالتّراب ، ممّا يجعلها مُلائمة لتمثيل هذا العُنصر . والصّنف الرّابع هو «صفصاف الوادي» ערבי נחל الذي يكون خيرُ نموّ له بالقرب من الماء تماماً ، وأغصانه تتدلّى نحو الجدول ، فهو يمثّل بذلك العنصر الأخير ، الماء .

ويعلّمنا الكتاب المقدّس أن علينا أن نتوجّه بالشّكر العميق لله على كل واحد من هذه العناصر الأربعة[1] .

أما الأُتْرُج فنحمله باليد اليُسرى ، والأصناف الثلاثة الأخرى نمسك بها معاً باليد اليُمنى . ونفعل ذلك لأن الأُتْرُج يحتوي من ذاته على كلّ ما تمثّله العناصر الأخرى : فالقشرة الخارجيّة صفراء كالنّار ، واللّحاء الدّاخلي أبيض ورطب كالهواء ، أما اللُّبّ فمائي ، والبذر جافٌّ كالتّراب . وهي تُحمل باليد اليُسرى ، هذا لأن اليد اليُمنى هي الأقوى ، وثمرة الأُتْرُج ليست سوى واحدة ، بينما باقي الشّعارات ثلاثة .

وهذه الشّعارات الأربعة[2] تمثّل أيضاً الأعضاء الرّئيسية الأربعة في جسد الإنسان : فالأُتْرُج يشابه شكله القلب نوعاً ما ، وبغير قلب لا يمكن لنا الحياة ، وبالقلب ينبغي للإنسان أن يحبّ بني جنسه من البشر . أمّا سَعفة النّخيل فتمثّل الصُّلب ، الذي هو عِماد هيكل الإنسان والذي يقع القلب إلى الأمام منه ، وهذا يعني أن علينا أن نعبد الله بكامل جسدنا . أمّا أغصان الآس فتشبه عين الإنسان ، التي بها يرى المرء أعمال إخوانه من البشر ، والتي بواسطتها يمكنه أن يحصّل المعرفة بالشّريعة . أمّا أغصان الصّفصاف فتمثّل الشّفاه ، التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يُسبِّح الله الأزلي ويشكره . والآس يُذكر في الكتاب المقدّس[3] قبل الصّفصاف ، لأننا نقدر أن نرى الأشياء ونعرفها قبل أن نتمكّن من لفظ أسمائها بشفاهنا ، وبوسع الإنسان أن ينظر إلى الكتاب المقدّس قبل أن يدرسه .

لذلك ، فبهذه الأعضاء الرّئيسيّة الأربعة من هيكل الإنسان علينا أن نسبّح الخالق ، كما قال داود : «جميع عظامي تقول : يا ربّ مَن مِثلُك ؟»[4] .

---

(1) نظرية عناصر الطبيعة الأربعة ، التي شاعت في القرون السالفة ، نسفتها في عصرنا علوم الكيمياء الحديثة من عُضويّة ومعدنيّة .

(2) هذه المُناظرة مثال على ما يزخر به التّلمود من مُعمّيات القبالاه الرّمزيّة الغنوصيّة ، ممّا ستظهر له أصداء في الأدب الصُّوفي العرفاني الإسلامي ومُصطلحاته الغيبيّة .

(3) في متنه (ليويين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأول ثمر شجر حمض وسَعَف النّخل وأغصان شجر الأيك وصَفصاف الوادي ، وتفرحون أمام الرّبّ سبعة أيّام» .

(4) سفر المزامير – 35 : 10 .

وكان الرّابي العظيم مُوشيْه بن ميمون في مؤلَّفه الموسوم بـ «مُوريه نَبُوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) ، قد فسّر بأن الله قد أمر اليسرَئيليين باتّخاذ هذه الشّعارات الأربعة خلال هذا العيد ، لكي يذكّرهم بأنهم قد جُلبوا من البريّة ، حيث لا تنمو ثمار ولا يعيش بشر ، إلى أرض تجري بها الأنهار والمياه ، أرض تفيض لبناً وعسلاً . ولهذا السّبب أمَرَنا الله بأن نحمل بأيدينا الثّمر المُبارَك لهذه الأرض أثناء ترنيم آلاء الحمد له سُبحانه ، فهو مَن صَنَعَ الآيات والعجائب من أجلنا ، وهو مَن يُطعمنا ويمدّنا بالقُوت ممّا تُنبته الأرض .

وهذه الشّعارات الأربعة تختلف من حيث الطّعم والشّكل والرّائحة ، تماماً كما يختلف بنو آدام في سلوكيّاتهم وعاداتهم .

والأُتْرُج فاكهة قيّمة ، فهي تصلح للأكل ولها عَرفٌ طيّبٌ للغاية . وهي تشبّه بالإنسان العاقل والسّالك سبيل الصّلاح تجاه الله وإخوته من البشر . فأمّا رائحة الأُتْرُج فهي أعماله الصّالحة ، ولُبّها هو علومه التي يغتذي منها الآخرون . ولذا فالأُتْرُج هو أكمل هذه الشّعارات ، وهو لذلك يُذكَر أولاً على الدَّوام ، ويُحمل بمُفرده بيدٍ واحدة .

أمّا سَعفة النَّخيل فرغم أنها تطرح ثماراً ، لا رائحة زكيّة لها . وهي تُشبَّه بأولئك النّاس الحائزين على الفقه ، لكنهم واهون من حيثُ أعمالهم ، العارفين بالشّريعة والمُنتهكين لأحكامها .

ويُشبَّه الآس بأولئك النّاس ذوي الفطرة الطيّبة ، الذين يُحسنون التّصرّف تجاه الله والنّاس ، لكنهم غير مُتفقّهين في العلم .

أمّا صَفصاف الوادي فليس له ثمارٌ ولا رائحةٌ عطريّة ، وهو لذلك يُشبَّه بالنّاس الذين ليس لهم علمٌ ولا يعملون بصالح الأعمال .

بيد أن هؤلاء إن هم توحّدوا جميعاً وبذلوا ضراعاتهم إلى العَليّ القدير ، فهو لا ريب سيستمع إلى كلامهم ودُعاءهم ، ولهذا فإن مُوشيْه قال لليسرَئيليين : «وتأخذون لأنفسكم» . . إلخ ، أي لمصلحتكم ومنفعتكم ، وذلك من خلال حَمدكم وتسبيحكم للرّبّ خلال الأيام السّبعة التي يمرّ بها عيد المَظالّ ، مُتّخذين

هذه الشّعارات ، وأن تهتفوا معها بعبارة : «هُوشَعنا»[1] הושענא (خَلِّصنا) ، مع الآية : «هُوْدو لِيهُواه كي طُوْف كي لِعُولام حَسْدُو» הודו ליהוה כי טוב כי לעולם חסדו: «احمدوا الرّبّ لأنه مُبارك ولأنّ إلى الأبد رحمتُه»[2] .

* * *

وكان الحاخاميم يقولون إن مَن فاتَه حضور عيد المَظالّ في يَروشَلايْم ، فقد فاتَه طعم السّعادة الحقيقيّة في حياته . وكان أول أيام العيد يُعقد فيها بوقار تامّ ، أما الأيام الوسطى فيُحتفَل بها بالفرحة والابتهاج بضُروب من اللّهو .

وكان هيكل يَروشَلايْم مُجهّزاً برِواق للنّساء ، كان يُسمّى شقّة النّساء ، بينما كان الرّجال يجلسون في الأسفل كما هي العادة إلى اليوم في الكنيس . وإلى ذاك الحدّ جرى ترميمه . وكان الكهنة الشباب يملأون مصابيح الشّمعدانات الكبيرة بالزّيت ، ويُشعلونها جميعاً ، إلى درجة أن المكان كان يشعّ بالضّياء حتى تُنير انعكاساتُه المتلألئة شوارع المدينة . وكانت الأناشيد والتّرانيم تصدح بأصوات العُبّاد الأتقياء ، بينما يُرتّل الكهنة من سبط ليوي التّسابيح للرّبّ على أنغام الكنّارات ، والشُّوفار ، والأبواق ، والمزامير ، وباقي آلات العزف . وكانوا يقفون على خمس عشرة درجة عريضة ، بالغين من الطابق السُّفلي إلى الرِّواق ، أي قاعة النّساء . وكانوا يُنشدون أثناء صُعودهم خمسة عشر مَزموراً ، مُفتتحين بمَزمور «ترنيمة المَصاعد» שיר המעלות (شِيْر هَمَعَلُوت) ، فيما كانت الجَوقة الكُبرى تنضمّ بأصواتها إليهم .

وكان الرّابي هِلّيل[3] الشيخ العتيق مُعتاداً على أن يخطب في جُموع المُصلّين في هذه المناسبات الدّينيّة .

---

(1) ترد العبارة في سفر أخبار الأيام الأول – 16 : 35 : «وقولوا خلّصنا {هُوشيعينو} يا إله خلاصَنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم ، لنحمد اسم قُدسك ونتفاخر بتسبيحتك» . وهذه التّرنيمة كانت من الاحتفال بمسح داود ملكاً على كلّ يسرَئيل ، وإصعاد تابوت الرّبّ إلى مدينته الجديدة «مدينة داود» עיר דויד ، انظر السّفر المرقوم 15 : 1 .

(2) سفر أخبار الأيام الأول – 16 : 34 . والاسم الأعظم (يهُواه) بلفظ : «أدوناي» .

(3) هو الرّابي هلّيل هَنّاسي ، تقدّمت ترجمته في القسم الثالث ، صفحة 253 .

فكان مُعتاداً على أن يقول : «إذا كان الله ساكناً هنا ، فها أنتم إذاً هنا موجودون ، كلّ واحد فيكم ، وأرواح كلٍّ منكم . ولكن إن ابتعد الله من بينكم من جرّاء المعاصي فمَن يكون منكم هنا إذاً ؟ هذا لأن الله يقول : «إذا أنت أتيتَ إلى بيتي آتي إلى بيتك ، أمّا إن تجافيتَ عن زيارة مسكني فأُهمل دخول مسكنك» كما هو مكتوب في متن التّوراه : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذِكراً آتي إليك وأُباركُك» (خروج 20 : 21)» .

فعندها يُجيب بعض النّاس : «طُوبى لأيّام شبابنا ، إذ لم تَصِم بالعيب والشّنار أيام شَيْبَتنا» . فأولئك كانوا زُمرة أهل التّقوى .

بينما يُجيب آخرون : «طُوبى لشيخوختنا ، ففيها تُبنا عن خطايا شبابنا وكَفّرنا عنها» . فأولئك كانوا زُمرة التّوّابين .

ثمّ تنضمّ الزُّمرتان معاً وتقولان : «طُوبى لمن كان بلا خطيئة . أمّا أنتَ أيّها المُذنب فهَلُمَّ إلى التّوبة ، إرجع إلى الله تَنَلْ مَغفرةً واسعة» .

فكان الاحتفال يستمرّ طوال الليل ، حيث أن الشّعائر الدّينيّة عندما كانت تُختَم كان النّاس ينصرفون إلى السَّمَر واللّهو الحلال والغامر .

وكان هذا العيد يُسمّى أيضاً «عيد استقاء الماء» ، لأنه خلال قيام الهيكل كان الخمر يُقدَّم خلال العام كتقدمة محرقة ، ولكن في عيد المَظالّ كانوا يقدّمون تقدمتيّ شراب ، إحداها من الخمر والأخرى من الماء . وبخصوص تقدمة الماء كانوا يعملون عيداً خاصّاً في اليوم الثاني من صلاة عيد المَظالّ ، يدعونه عيد استقاء الماء . ولقد جرى وضعه بناءً على عبارة النّبي يشَعْياه :

«فتَستَقُون مياهاً بفَرَح من ينابيع الخَلاص»[1] .

ושאבתם־מים בששון ממעיני הישועה:

* * *

(1) سفر يشَعْياه – 12 : 3 .

عيد التأسيس
(عيد الأنوار - حَنُوكاه חנכה)

يُحتفَل بهذا العيد لمدّة ثمانية أيام خلال الشهر التاسع «كسليف» כסלו (ديسمبر) ، وهو يخلّد ذكرى تأسيس الهيكل من بعد خرابه على يد أنطيوخوس إپيفانس Antiochus Epiphanes ، الذي تمّ دحر جيوشه على أيدي الحشمونيين ملوك المكابيّين الأبطال .

ولقد صَنَعَ الله القُدّوس مراراً الآيات والعجائب لصالح أبنائه في ساعة ضيقهم ، فأظهر من خلال ذلك عظمته الفائقة لأمم الدّنيا . وهذه الآيات تقف حائلاً دون سقوط الإنسان في حَمأة الكُفر وعَزو كلّ اتّفاقات القَدَر إلى مسار حركة الطبيعة . فالله الذي خلق الدّنيا من العَدَم ، بإمكانه أن يغيّر بمشيئته الطبيعة التي أنشأها بيده . فلمّا أحرز الملوك الحشمونيّون - بمعونة الله - نصرهم السّاحق وأحلّوا في بلدهم السّلام والوئام ، كان أوّل عمل قاموا به تطهير الهيكل وإعادة تأسيسه من بعد خرابه . فعلى ذلك ، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر كسليف ، التزاماً منّا بفروض الطاعة لتعاليم الحاخاميم ، نشرع في عيد التأسيس من خلال إنارة المصابيح أو الشّموع المُعدّة خصّيصاً لهذه المناسبة[1] . ففي الليلة الأولى نُنير واحداً ، ثم واحداً إضافيّاً في كلّ ليلة تالية خلال مدّة العيد . ونحتفل به كذلك بترتيل ترانيم الشّكر والتّهليل (هَلّلُوْياه הללויה) .

وهذا العيد قد تمّ التّبشير به في سفر العدد ، فلمّا كان أهَرُون يتلقّى تقدمات رؤساء الأسباط كلّهم وهدايا أريحيّتهم الكبيرة ، كان يُساوره شعور نَدَم ، لأنه هو وسبطه (قبيلته) كانوا غير قادرين على المشاركة معهم في ذلك . لكن هذه العبارات قيلت لتعزية خاطره : «شأنُك يا أهَرُون أعظم من شأنهم ، فأنت مَن يُضيء السُّرُج المُقدّسة ويُصلح أمرها»[2] .

---

(1) فلهذا يُدعى «عيد الأنوار» ، أو «حَنُوكاه» חנכה المُشتقّة من العبْرية «حَنُوك» חנוך التي تعني التّأسيس أو التّنشئة . و«حَنوكيّاه» חנכיה هو شمعدان «المنُوراه» מנורה ذي التسع شُعَب المُستعمل بعيد الأنوار ، بينما تكون المنُوراه العاديّة بسبع شُعَب .

(2) انظر سفر العدد 8 : 1-2 : «متى رفعتَ السُّرُج فإلى قُدّام المنارة تُضيء السُّرُج السّبعة» .

فمتى قيلت هذه العبارات ؟

عندما كُلِّف بمُباركة بني يسرَئيل ، كما يرد في سفر العدد 6 : 23 ، وكما سيرد لاحقاً في سفر المكابيين بين أسفار الأبوكريفا المحذوفة[1] .

والرّبّ قال لمُوشيه[2] : «كَلِّم أهَرُون وقُلْ له : في الأجيال التي تأتي ، يكون هناك تأسيس آخر وإضاءةٌ للسُّرُج ، فنَسْلُك وحده هو مَن يتولّى هذه الشّعيرة[3] . ولسوف تُرافق المعجزات والعجائب هذا التّأسيس . ولا تخشَ على عَظَمة رؤساء سبطك[4] ، فخلال قيام الهيكل تقدّم أنت القرابين ، وأمّا إضاءة السُّرُج فتكون لك ولبَنيك فريضةً دَهريّة . ولدى خراب الهيكل سيتوقّف تقديم القرابين ، أمّا إضاءة سُرُج التأسيس الذي يعمله الحشمونيّون فلا تتوقّف أبداً» .

وكان الحاخامات يُعلنون هذا الاحتفال بإضاءة السُّرُج ، لإشهار مُعجزة الله للأجيال القادمة جميعها ، ولذا فمن واجبنا أيضاً أن نُضيء مثلها في الكُنُس وفي بيوتنا .

ورغم أن الله قد ابتلى بني يسرَئيل بناءً على معصياتهم ، فهو ما برح يعاملهم بالرّحمة ، ولم يسمح بوقوعهم في الهلاك التّام ، ولذا فحول هذا العيد أيضاً يردّد الحاخامات هذه الآية من سفر اللّيويّين (26 : 44) :

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتُهم ولا كرهتُهم حتى أُبيدَهم وأنكُثَ ميثاقي معهم ، لأني أنا الرّب إلههم» ואף־גם־זאת בהיותם בארץ איביהם לא־מאסתים ולא־געלתים לכלתם להפר בריתי אתם כי אני יהוה אלהיהם:

---

(1) لا وجود لسفري المكابيّين (مكابيم) بمتون «الكتوبيم» من النصّ المَسُوراتي العبري لأسفار اليهود (تَنَخ) ، ولا في التّرجمات الإنجيليّة (البروتستانتيّة) ، لأنهما محذوفان ومرفوضان (سفاريم حيصونيم ספרים חיצונים) . زِد عليه أنه ليس لهذين السّفرين إلا أصول إغريقيّة . أما الطالب لهما فيجدهما في التّرجمات الكاثوليكيّة .

(2) هذا النّصّ ليس في التّوراه ، بل هو من أجَداه التّلمود . إذ كيف يخاطب الله أهَرُون على لسان أخيه مُوشيه ، فيذكر تأسيس الحشمونيين للهيكل بعد قرون من عصرهما ؟

(3) ثمّة أشياء مُضارعة لذلك في سفر العدد ، الأصحاح 18 .

(4) أي سبط ليوي الذي منه أهَرُون وأخوه مُوشيه ، ابنا عمرام بن قهات بن ليوي بن يعقوب .

فهكذا يفسّر الحاخاميم هذه الآية :

«ما أبيتُهم» ، في زمن الكلدانيين عيّنتُ لهم دانيئيل ورفاقه ليخلّصوهم .

«ولا كرهتُهم» ، في زمن الأشّوريّين مددتُهم بماتياس وأبنائه ورفاقه لكي يخدموهم .

«حتى أُبيدَهم» ، في زمن هامان أرسلتُ مُردَخاي وإستير لإنقاذهم .

«وأنكُثَ ميثاقي معهم» ، في زمن الرُّومان عيّنتُ الرّابي يهُوداه وشُركاءه للعمل على خلاصهم .

«لأنّي أنا الرّبّ إلههم» ، أي في المُستقبَل سوف لن تتمكّن أيّة أمّة من الحُكم على يسرَئيل ، وستعود لنَسل أبرَهام من جديد دولتُهم المُستقلّة .

هذا وإن تأسيس الهيكل ، الذي يُخلّد عيد «الحَنُوكاه» ذكراه ، قد تمّ في العام 3632 للخليقة ، أي في عام 129 ق . م .

* * *

عيد پُوريم
פורים

يُخصّص هذا العيد[1] ، الواقع في اليوم الرّابع عشر من الشّهر الثاني عشر «آدار» אדר (مارس) ، لتخليد ذكرى خلاص العبريّين من مكائد هامان ، عن طريق مساعي مُردَخاي وإستير ، بعَون الله .

ورغم أن الله القُدّوس يحذّر اليسرَئيليّين ، بُغية أن يتوبوا عن ذُنوبهم ، فهو أيضاً يُغريهم ويُرغّبهم ، لكي يُضاعف لهم الثّواب .

فعلى سبيل المثال ، إن الأب الذي يحبّ ابنه ويتمنّى له أن يحسّن من سُلوكه ، ينبغي له أن يُعاقبه على إساءاته ، ولكنه عقابٌ تقف من ورائه محبّةٌ ضافية .

---

(1) التّسمية «پُوريم» جمع «پُور» ، وهو القُرعة التي كان استقسم بها هامان لإبادة اليهود .

قال بعض المُرتدّين يوماً للرّابي صَفْرا : «مكتوبٌ : «إيّاكُم فقط عرفتُ من جميع قبائل الأرض ، لذلك أُعاقبكم على جميع ذُنوبكم»[1] ، فكيف يصحّ ذلك ؟ هَبْ أن رجلاً له حصانٌ برّيٌّ جامح أكان يُركِب عليه أعزَّ أصحابه ، فيُعرّضه لخطر السّقوط والإصابة ؟» .

فأجاب الرّابي صَفْرا : «افترض أن رجلاً أقرضَ مالاً لشخصين ، أحدهما صديقه والآخر عدوّه . فلا ريبَ أنه سيسمح لصديقه بتسديد القَرض له بالتّقسيط بحيث لا يكون سَدادُ الدَّين مُرهِقاً له ، وأمّا عدوّه فسيطالبُه بالمبلغ كاملاً . فالآية التي تذكرها تنطبق على هذا الأمر بالطريقة ذاتها : «أنا أحبّكم ، ولذلك أُعاقبُكم على جميع ذُنوبكم» ، بمعنى : «أُعاقبُكم عليها حينما تقع ، شيئاً فشيئاً بما يمكّنكم من أن تحوزوا على الإبراء والنّعيم في الحياة الآخرة» » .

إنّ تصرُّف المَلِك بتسليم خاتَمه إلى هامان كان له على اليهود تأثير أكبر من الوصايا والإنذارات التي راح ثمانيةٌ وأربعون نبيّاً يردّدونها على أسماعهم مُسبقاً ولاحقاً . فإذا بهم يلبسون المُسوح ويُحسّون بالنَّدَم الحقيقي وتسيل دُموعهم ويصومون ، فعامَلهُم الله بالرّحمة وأهلك عدوّهم هامان .

ورغم أن قراءة سفر إستير (مَجِلاّه מגלה)[2] في عيد «پُوريم» ليست من وصايا التّوراه ، فهي فريضةٌ علينا وعلى نَسلنا . ولذا فهذا اليوم مُعيَّن للاحتفال والابتهاج وتبادُل الهدايا ، وكذلك تقديم العَطايا للفُقراء لكي يُتاح لهم أيضاً حقّ الابتهاج . فكما في مَرسوم هامان ، لم يتمّ التّمييز بين الأغنياء والفقراء بل حُكم عليهم جميعاً بالهَلاك ، فالمفروض أيضاً أن تُتاح للجميع مُوجبات الفَرح ، وعلى ذلك ينبغي لنا في جميع العصور تذكُّر الفقراء بسَخاء في هذا اليوم .

* * *

(1) سفر عاموس – 3 : 2 .

(2) في هذا العيد يُخرج اليهود دَرج «مجلّت إستير» מגלת אסתר (المكتوبة بيد رحابنة العراق) مرّة في العام ، فيقرأونها ويأكلون الفطير מצה (مَتْساه) الخاص بهذه المناسبة .